نزعات خرافية جديدة ...

بقلم عبد اللطيف شراره

هناك حالات فردية ، واجتماعية أيضا ، يفقد بها العقل سلطانه على النفوس ، وتصبح الكلمة العليا فيها للغرائز ، للعواطف ، للانفعالات البدائية ، وأخيرا للمخاوف التي تخامر الافراد والجماعات على السواء ، وتسري عدواها من جيل الى جيل ، ومن مجتمع الى مجتمع .

وهذه الحالات التي تعم وتشمل ، مع الزمن ، هي التي تقوم ، على التحقيق ، وراء كثير من التقاليد ، والعادات ، والافكار ، والنزعات الخرافية .

ذلك بأن الروح النقدي ليس من شأن الجمهور ، وانما هو في الدرجة الاولى ، ميزة أفراد . والذين ينصرف همهم الى النقد على أنواعه ، يعبرون بمجرد هذه العفوية في انصرافهم ذاك ، عن أوضاع نفسية متباينة ، متناقضة ، متشابكة ، لا يمكن حصرها في وصف واحد ، اذ يمكن أن ينشأ هذا الروح ـ النقدي ـ عن روية واعمال نظر ، ويمكن أن يكون ، في الوقت ذاته ، نتيجة شعور شخصي ، أو تجربة شخصية مالت بصاحبها نحو المواقف السلبية من الوجود البشري . وقد يكون أحيانا صادرا عن ضيق بالانتاج ، والابداع ، والعمل ، وما تقتضيه هذه من جهود أو تستدعي من كفاءات مفتقدة ، فيعكف صاحبه على « مناوشة » المنتجين والمبدعين والعاملين ... ويمضي في « الاشتغال » بغيره ، بدلا من أن ينصب على تحسين حظه ، ومغالبة ما يراه قدرا له !

واذا كان الروح النقدي ضئيل الظهور في الجماعة أو الجمهور ، فان الروح العلمي أقل شيوعا حتى في الافراد ، ولا نعرف انه توفر لمجتمع من المجتمعات الا بعد عصور وأحقاب ، وخطوب وأوصاب ، وقد يظهر في أمة معينة ، في زمن معين ، ولا نقع له على اثر في أمة غيرها ، في زمن آخر .

وكان من نتائج ذلك الاضطراب الاصيل في تكوين الروح النقدي ، وهذا الفقر النسبي في الروح العلمي ، أن ظلت « الخرافة » ، أو « التفكير الخرافي » بتعبير أصح ، هو الاكثر انتشارا ، حتى في أوسع رقاع الارض تمدنا وعمرانا .

السياسة : وراء انتشار الفكر الخرافي

كانت السياسة تعني ، في العصور القديمة ، السعي وراء الرئاسة ، والعمل من أجل السيطرة ، واستقطاب أكبر عدد ممكن من الجماهير . ولا شيء غير ذلك ! ولا يزال هذا المفهوم للسياسة هو السائد في عقول عدد لا يحصى من الافراد ، والفئات ، والجماعات ، لا سيما في البيئات التي تحسب انها بلغت درجة عالية من التقدم التقني ، ووفقت الى انجازات علمية لم يوفق اليها غيرها ، بحيث تتخول لنفسها امتيازات ومصالح ترهق بها الآخرين .

ولم يكن لرجال السياسة بد ، في اطار ذلك المفهوم العتيق الحديث ، من استغلال الحالات الفردية والاجتماعية التي يفقد بها العقل سلطانه ، ليتمكنوا من الابقاء على سلطانهم ، وهكذا ... وفقوا ، على غير وعي منهم ، أو بطبيعة الوضع البشري ، الى الابقاء على الخرافة ، ومدها بالايد والقوة ، لترسخ في الارض ، ويترسخ معها نفوذهم .

ولا أدل على صحة ذلك ، من الآلام والمشقات والخطوب التي نزلت بأعداء الخرافة ، وأصدقاء العلم ، والتفكير العلمي ، في كل عصر وبلد . وهذا مبسوط في تاريخ العلم ، على نحو ، لا يدع مزيدا فيه لمستزيد !

استراتيجية جديدة : تحويل العلم الى خرافة .

غير ان العلماء ، وأصحاب التفكير العلمي القويم ، استطاعوا لكثرة ما بذلوا من جهود ، وتضحيات ، وشدة ما كابدوا من عذاب ومتاعب ، أن يفرضوا أنفسهم على المجتمعات البشرية ، فلجأ المفتونون بالسيطرة الى استراتيجية جديدة ، وهي قبول المبادىء العلمية في الشؤون المادية ، والخضوع لمقتضياتها الآنية ، والاشادة بالمبدعين والمخترعين والمكتشفين في كل حقل وميدان ، حتى اذا خلصوا من معارضة العلماء ، ونفذوا الى مواقع السلطة ، حولوا العلم نفسه الى خرافة ، وراحوا يتذرعون بالتفكير العلمي لمقاومة الروح العلمي ، وتضليل العقول ، واخفاء الحقائق ، ونفذوا من ثمة الى بلوغ أغراضهم اللاعلمية ، باسم العلم .

ولنا في موقف هتلر ، في الثلاثين من شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٩٣٧ ، برهان ساطع لا يدحض ، ودليل دامغ يلقم حجرا كل من ينكر صحة ما نبين هنا ، اذ وقف يومذاك خطيبا ، وقال : « ... اني أعلنها هنا ، أمام المستقبل ، ان عقيدة الدم والعرق التي تعتنقها الحركة الوطنية ـ الاشتراكية (النازية) ستبعث على تحول في تقييم معارفنا ، ومن ثمة ، في فهمنا تاريخ الماضي ، ماضي

الانسانية كلها ، وفي ادراكاتنا المسبقة للمستقبل ، على نحو ما أحدثت معرفتنا بدوران الارض حول الشمس ثورة في فهمنا للكون » .

والحقيقة ان هتلر كان في عقيدته العنصرية ، أكثر « خرافية » من نيرون الذي اغتال أمه ، وأحرق روما ، وطاف على مسارح أثينا يغني نشدانا منه لتصفيق الجماهير واعجابها بعبقريته الفنية في الغناء !

بيد ان هذه الاستراتيجية الجديدة التي تستغل العلم لاغراض سياسية ، ليست من مبتكرات العقل الغربي « العلمي » ، وانما هي من مخلفات العصور الوثنية ، من « بدائع » العشارين والفريسيين الذين تظاهروا باتباع السيد المسيح ليقاوموا المبادىء والتعاليم المسيحية ، أو هي من آثار المنافقين الذين تذرعوا بالاسلام وتعلقوا عليه حجة يحاربونه بها ، ويبقون في داخله ، على الربا ، ويمنعون العدالة التي جاء بها الشرع الاسلامي من بلوغ أهدافها في حياة الناس !

خرافات الصهاينة في أوروبا وأميركا .

لم يكن هتلر في عنصريته الخرافية التي ضحى على مذبحها بالملايين ، سوى صهيوني الماني ، أو جرماني ، نزل الجرمان من خرافته منزلة « الشعب المختار » في العقيدة الصهيونية ، وغرضه الحقيقي ـ علميا ـ انما كان ، أن يستغل العرق الجرماني سائر الاعراق البشرية ، وفي مقدمة هذه اللاتين والسلاف ، ثم ينتقل الى غيرهم . .

ومن الواضح ان الخرافة الاساسية ، وهي القول بتفوق عنصر على عنصر ، وردت في الاصل ، من التراث اليهودي . ثم نشأت على جذع تلك الخرافة كثير من الخرافات الفرعية التي ترمي أكثر ما ترمي ، الى بذر الشقاق ، واحداث التفرقة بين الشعوب والامم ، وحملها على الاحتراب والاقتتال ، مثل أسطورة « الشرق والغرب » ، وحكاية « البداوة والتمدن » ، والتشديد على الفروق بين مناخ ومناخ ، وثقافة وثقافة ، واقليم واقليم ، و . . .

وفي حمى هذا الجو الخرافي الذي هيمن على أوروبا طوال فترة ما بين الحربين ، وما زال يهيمن على أميركا الشمالية (كندا والولايات المتحدة) ، سرت سموم أتت على البقية الباقية من الروح العلمي الرصين ، والفكر النقدي البناء ، وقضت على سلامة التفكير ووضوحه لدى الجماهير الاوروبية والاميركية .

وقد يكون أفتك هذه السموم ، وأبرزها للاذهان ، ذلك « الغلو » في قيمة الاعلان ، واثر الدعاية ، حتى أوشك الناس أن يفقدوا ، في جو هذه الحمى الدعائية ، كل شعور بالحقيقة ، وانصرف معها هم الاكثرية الساحقة الى الاعلان أكثر من أي شيء آخر . وبهذا . . . تحولت « الاكاذيب » لكثرة ما أحيطت بالدعايات والاعلانات الى « عقائد » هي في جوهرها أوهام ، لا سبيل الى القضاء عليها ، ولا الى تبديدها بعد الا بثمن باهظ ، لا بد أن يدفعه الضالون والمضللون ، على السواء ، فالحقيقة من القوة دوما ، بمنزلة يفرضها الزمن معها ، على أعدائها ، وينتقم لها من شانئيها .

وأغرب ما يتبينه الباحث في هذه النزعة الخرافية الجديدة التي جرفت الاوروبيين والاميركيين ، انساق العلماء والمفكرين والادباء والصحافيين وأساتذة التاريخ والقانون في تيارها ، حتى لتجد عالما رياضيا مثل اينشتين يبحث في نفسه عن عنصريته ، ولا يبقى فرق بينه وبين غوبلز وزير الدعاية الهتلرية ، اذ نجده يقول ، وهو لا يشعر بفداحة الخطأ فيما يقول : « ان تلك الاشياء الثابتة الدائمة في تقاليد الشعب اليهودي ، تنهض لي بالبرهان على هذا الواقع ، وهو انني أنتمي اليه ، وقد بعثت هدية من القدر اليه ! » .

أرأيت الى الغرض السياسي المشبوه : كيف يحول العقل الرياضي ، حتى العقل الرياضي ، الى فكر خرافي ، خالص في خرافيته ؟!

لقد برر هتلر سياسته ـ كما رأيت ـ بالعلم ، وان كان علمه خرافيا ، ولكن اينشتين ، « رجع » الى التقاليد الخرافية ، ليبرز مواقفه السياسية . وواقع أمره ، في الحقيقة ، انه أراد ـ على غير وعي منه ، فيما أحسب ـ أن يستغل حتى شهرته كعالم ، في سبيل الدعاية لليهود ، عند الاميركان ! وتلك هي خرافية في جوهرها .

« تخريف » الثقافة بين البحث والنقد .

لم يكن أمام العاملين في حقول السياسة من أكثر الاوروبيين والاميركيين ـ لا كلهم ، طبعا ـ الا أن يخضعوا الرأي في الثقافة ، لهذا الجو الخرافي ، أي لحالة هي أنأى ما تكون عن العقل النير الهادىء ، والبحث المتأني الصبور ، وأن يسلموا قضيتها للعواطف ، والغرائز ، والعصبيات العنصرية والقومية والدينية والعقائدية السياسية ، فكان أول ما كان ، في اجراء عملية « التخريف » للثقافة ، حديث الثقافة السامية ، والثقافة الآرية ، وراح ناقدو الادب في ديارنا ممن تحولت الثقافة في تفكيرهم الى خرافة ، يتحدثون عن الجانب الآري من شاعرية ابن الرومي ، والجانب الحامي من فروسية عنترة ، و « التخلف » السامي في عقلية الشريف الرضي ، وهلم جرا . . .

وقضية الثقافة ، منذ أثيرت حتى الآن ، وحتى من خلال ما نشر حولها في مجلة « الآداب » (١) ، لم تصبح « قضية » ، الا لادخال العنصر السياسي عليها ، واقتحامه

---

(١) لا بد من لفت نظر القارىء الى بحث الدكتور قسطنطين زريق « نحو ثقافة عربية أفضل » في العدد الرابع من « الآداب » الصادر بتاريخ نيسان (أبريل) ١٩٥٤ ، مرورا بالاستفتاء الذي أجرته « الآداب » حول هذا الموضوع ، حتى مقالات الاستاذ محيي الدين اسماعيل الاخيرة .

على يد الغربيين العنصريين ، حرمها ، لانها حين طرحت بوصفها « قضية » ، راح المفكرون يواجهون الجانب الثقافي من حياة الامم ، بروح النقد المتميز ، والمتحامل أحيانا في مواقف العداء المكشوف ، أو ظروف الحرب . وكان جديرا بها ، أن تواجه بروح البحث الهادىء المتزن ، بعيدا عن الاشخاص والعصبيات والاحكام والمعايير الخاصة ، وبمنأى عن المدارس والمذاهب الفلسفية المتشعبة ، حتى اذا بانت الوقائع الثابتة ، وظهرت الحقائق بموضوعيتها الناصعة ، ولم يبق للاذواق والامزجة والنزعات الفردية ، حيلة في نفي هذه الحقائق ، ولا سبيل الى انكار تلك الوقائع ، أتيح لذوي الرأي ، وحتى لاهل « الحل والربط » أن يحكموا ، وأن يفيدوا من الملاحظات والآراء والابحاث والدراسات المطروحة ، ما يصح اعتماده في العمل والتطبيق ، لا سيما ان معظم الدول العربية ، ان لم يكن جميعها ، تشتمل في تنظيماتها الادارية على « وزارات » للثقافة .

اما وقد طرحت قضية الثقافة المعاصرة ، على هذا النحو ، أي بروح نقدي محض ـ قد يكون متحيزا أو غير متحيز ـ ، وراح يدلي فيها كل ذي ذوق أو ذي مزاج بدلوه ، من غير التفات الى الجوانب الواقعية ، ولا الى الجوانب العملية المثمرة ، فذلك ما جعلها أشبه شيء بدعوى أحيلت الى محكمة غير مختصة ، وجعل الناظرين فيها يقفون موقفا هو الترجرج والبلبلة ، لانهم لا يعرفون ما اذا كانت من اختصاصهم أم هي خارجة عنه ، أم انها بين بين !

والواقع هو ان كل موضوع يتناوله الناس ، عامة الناس ، بروح النقد ، يتحول لمجرد تناوله بهذه الروح ، الى قضية شبه شخصية ، ان لم تكن شخصية برمتها ، ويجد بها كل فرد ، حينذاك ، ان له « مشاركة » واحدة فيها على الاقل ، أو أكثر من مشاركة ، سواء دخلت دائرة اهتمامه ، أو خرجت عنها ، أو اقحمت عليها اقحاما ، نتيجة هذا الجو الخرافي الذي يقحم كل الناس في كل موضوع !

والثقافة كبحث لا كموضوع نقد ، من أعسر الابحاث الفكرية ، وأشدها تعقدا ، وأكثرها شمولا وتشعبا ، فلا يستقيم لاي امرىء أن يتناوله من زاوية اختصاصه ، وحدها ، وانما يجب أن يكون عالما بالتاريخ في أول درجة ، وتاريخ العلم والفكر على الاخص ، وله من بعد مشاركات في اللغة ، والادب ، والتشريع ، والسياسة ، وكلما زادت هذه المشاركات ، وعمقت واتسعت ، كان حريا به أن يخلص الى نتائج موضوعية ، مثمرة ، ومجدية .

ولا بد ، في جميع الحالات ، من تحديد « الموضوع الثقافي » عند الحديث عن الثقافة ، ثم لا بد من تركيز الدلالات والمفاهيم ، وايضاح الفروق بين معاني الكلمات ، حتى يصبح الخوض في مشكلات الثقافة ـ وما أكثرها ! ـ بله وضع الحلول لها ، شبيها بمزاولة الابحاث الرياضية التي لا يستقيم فيها البحث الا استنادا الى تعريفات دقيقة واضحة ، وأعاليم جلية يستخدمها الذهن كما تستخدم اليد أدوات الفلاحة في الحقل ، والكتابة في المكتب ، والرسم في المحترف ...

ذلك لان الموضوعات الثقافية لا تنحصر في فن ، ولا في علم ، ولا في تقنية ، ولا في فرع من فروع المعرفة والعمل ، كما انها لا تنحصر في التاريخ بعصر ، ولا في الجغرافية ببلد ، ولا في الدين بطقس أو عقيدة ، ولا في الفلسفة بمدرسة أو اتجاه . واذا لم يحدد الباحث موضوعه ، وكان همه منصرفا الى النقد ، وتناول الثقافة باعتبارها « مقولة » ـ كما كان شأن بعضهم على صفحات « الآداب » ـ اضطر مفكر كالاستاذ مجاهد عبد المنعم مجاهد ، الى وصف المقال الذي يتناولها هكذا ، ان « ما فيه لا يعدو سوى مراهقة فكرية وصبيانية » . والاستاذ مجاهد كان « مضطرا » الى هذا الوصف اضطرارا لا معدى له عن تلبيته !

وهكذا ، يمكن القضاء على تلك النزعة الخرافية الغربية في تناول الموضوعات الثقافية ، أي بالبحث ، والتمحيص ، والروح الرياضي ، والنأي عن العاطفة والغرض ، وتجنب الانزلاق في مساوىء النقد ، والتشبث بفضائله .

خرافات عربية حديثة .

الخرافة ، في جوهرها ، نتاج انهزامية العقل الانساني حيال الظواهر التي لا يجد لها تفسيرا ، فيطمئن اليها ، أي الى الخرافة ، لانها تلبي نزعته الى الكسل ، الى الراحة . والخرافيون في الحقيقة ، هم الانهزاميون الذين يرتاحون الى ما يرضي أهواءهم ، ويستجيب لرغباتهم ، ويتيح لهم ما يشتهون من أقرب السبل ، بينما الروح العلمي جهاد ، والنقدي قلق .

وكان أن سرت بعض النزعات الخرافية الحديثة من أوروبا وأميركا ، الى أقطار آسيا وافريقيا ، كالايمان بالدعاية ، والاعتقاد بأفضلية عرق على عرق ، والاتكاء على « نظريات » يشيع انها علمية ، والميل الى قاعدة « فرق تسد » في تركيز الفكر السياسي ، وتغليب الآراء الصادرة عن الاجانب على الحقائق الموضوعية .

واذا كان مصدر الايمان بهذه الخرافات يختلف بين الاوروبيين والاميركيين من جهة ، والآسيويين والافريقيين من جهة أخرى ، بمعنى ان الاغراض السياسية هناك ، وأحداث التاريخ الاستعماري ، تكمن وراء الفكر الغربي الخرافي ، والروح الانهزامية والاتكالية هنا ، هي التي تكمن وراء الخرافات العربية الحديثة ، فان اختلاف المصدر في الظاهر ، لا يفيد أبدا ان جوهر الخرافية الحديثة ، متعدد .

ان انخذال الاستعماري أمام شهواته ، وانصياعه لرغباته في التحكم واستعباد الآخرين وهدر حقوقهم

وحرياتهم ، وكل ما يجر وراءه هذا الانصياع وذلك الانخذال من أفكار ، ومبادىء ، ونظريات ، وعقائد يحسبها علمية ، لا تختلف أبدا في شيء عن انهزامية الانهزامي من العرب ، والشرقيين عامة ، اذ تزين له ـ أي انهزاميته ـ ان ما يقوله أعداؤه هو الصواب ، ويحمله اخلاده الى الراحة على تقبل كل ما يهمس في أذنيه ، أو يطالعه في الصحف المغرضة والمعادية له ، ويرفض عن كسل ، نقد ما ينهى اليه من آراء وأفكار .

اذا قرأ سلامة موسى مثلا ـ وهو مثال الخرافية العربية الحديثة ـ في بعض الكتب الاوروبية ان العرب أبعد الناس عن التفكير في المستقبل ، نسي كل ما جاءت به النصرانية عن ملكوت السموات ، وغفل عن كل ما نادى به الاسلام من دعوات لاتقاء سوء المصير ، وما حث عليه من عمل بحيث يتصور كل انسان انه يعيش أبدا ... ثم أغفل كل ما شاع وذاع في فضاء الفكر العربي من أخبار الكهان والحكماء والالمعيين الذين عرفوا انهم ذوو « الاصابة بالظن » .

واذا أطلع فلان على الافكار الشائعة عن العرب في ألمانيا ، في انكلترا ، في أميركا ، تضاءلت ثقته بنفسه ، ووطنه ، وشعبه ، وتاريخه ، ولغته ، حتى اليأس ، بل حتى النقمة على نفسه ووطنه ، ولا يخطر في باله ان هذه الافكار والآراء التي تلقى ، انما يلقيها أناس لهم مصالحهم ، وأغراضهم ، وعقليتهم الخاصة ، وان ما يقولونه يحتاج ، على الاقل ، الى بحث وتمحيص ، فلا يجوز التسليم بصحته لمجرد انهم قالوه !

واذا سمع فلان على لسان أوروبي ان « آسيا أنثى ، وأوروبا ذكر ، ولا غنى عن هذين لايلاد عالم جديد » ، خالجته الحسرة ، وشعر بالمرارة لان بلاده تقع في قارة « توصم » بأنها أنثى ! فيا لهذا وذاك من خرافيين ، يعيشان بعقلية خرافية ! وما لهما يغيبان عن « جنس » أفريقيا ، بين أوروبا وآسيا ؟!

ظواهر أمل ، هو الحقيقة نفسها .

ولكن ما من خرافة عاشت ، وخلدت مع الحياة . الخرافات كلها سحقت وماتت في اللحظة التي سلط عليها الفكر الانساني ـ لا الحيواني ـ أنواره . والذين حولوا العلم نفسه الى خرافة ، أو تعلقوا عليه سببا الى الدعاية ، أو تقنعوا به لتحقيق أغراض يشجبها كعلم ، سحقتهم خرافيتهم ، وانقلبت عليهم دعاياتهم ، وهوت عروشهم يوم هوت أقنعتهم ، وأمسوا عبرة لمن يعتبر !

ها ان الروح العلمي الاصيل الذي نشأ في ديار آسيا ، وحضنته أفريقيا ، وتنامى في أوروبا ، أخذ يطل من جديد ، أخذ « يشرق » في هذا الشرق ، والنقد الصحيح البناء يواكب ذلك الروح ، وينشر حزمة أضوائه في دروب الحفاة والعراة والجائعين ، ويفل جيش الخرافات الحديثة الذي أشاع البلاء والفساد في قارات العالم الخمس .

والامل كله معقود على الحقيقة . والحقيقة لا بد أن تظهر ... رغم أنف المكابرين ، والانهزاميين ، والخرافيين .

عبد اللطيف شراره

الوجه الآخر لأميركا ... الفقر في الولايات المتحدة

بقلم ميكايل هارنفتون

ليس « الوجه الآخر لاميركا » رحلة عاطفية يقوم بها في احياء « ولفير ستيت » كاتب اميركي غاضب امام الخمسين مليونا من الفقراء المنسيين المنبوذين . بل ان « ميكايل هارنفتون » يعلن غضبه وثورته بصفته عالما اجتماعيا واقتصاديا . ان الفقر في الولايات المتحدة كتلة ، دولة ضمن الدولة ، نظام خلقه نظام. وليس فيه ما يشبه البؤس الاسيوي الذي يعتبر القضاء عليه هدفا قوميا لانه نصيب الاكثرية . ولكن هل يستطيع الاميركيون الذين ينعم ثلاثة ارباعهم باعلى مستوى للحياة في العالم ان يتحملوا وقتا طويلا مشهد هذا الفقر الذي لا مثيل له ، وهؤلاء الفقراء (الخمسين مليونا) الذين لم يعرف التاريخ اعجب منهم ؟

والمؤلف يبرهن ، كما يقول كاتب المقدمة كلود روا ، ان كون الانسان فقيرا لا يعني انه يملك مالا اقل من غيره ، بل ان القلة لديه في كل شيء ، في الذكاء ، في الصحة المعنوية والبدنية ، في الروح الاجتماعية . « ان الفقر لا يعني ان الانسان يملك اقل ، بل يعني ايضا انه يعيش اقل ! » .

يصدر في الشهر القادم